خبرة مُصَلّ في التفاعل مع التراتيل البيزنطيّة

دور المسبحة في صلاة الجماعة وتبرير "المطوّلات" في التراتيل البيزنطيّة

بقلم جوزيف يزبك

يعرض هذا المقال تصوّرًا شخصيًّا لدى الكاتب، مبنياً على خبرة آباء الجبل المقدّس، لطريقة تفاعل المصلي مع التراتيل البيزنطية من أجل بلوغ أعلى تركيز وانسجام ممكن في الخدم الليتورجية.

• التعارض الظاهر بين صلاة المسبحة والاجتماعات الليتورجية:

لطالما صادفت في صلوات الجماعة الليتورجية مصلّين قابعين في كراسيهم وقد تدندلت من أياديهم مسابح سوداء تتغلغل عقدها بين أصابعهم وتروح تدور وتدور على وقع التراتيل دونما ضجر.

وكنت أعرف ان هذه المسبحة بعقدها المحكمة أنما تشكّل السند الملموس لصلاة الربّ يسوع القلبيّة، الصلاة الدائمة. فلا تنفكّ تعود جملة "أيّها الربّ يسّوع المسيح يا ابن الله الوحيد ارحمني انا الخاطئ" على كلّ عقدة حتّى تعبر من العقل الى القلب، لازمة لا ارادية تطرب اليها دقّات القلب روحيّاً.

وهنا كنت أتساءل: أوليست صلوات الجماعة "ملتقى" عشّاق المسيح، "**يجتمعون**" الى وليمة سريّة "**يشاركون**" فيها حلاوة الربّ؟ أوليست بالمقابل، صلاة القلب الدّائمة أنموذج في الصّلاة الفردية "**يختلي**" فيها العاشق المؤمن بمعشوقه المسيح؟ وأوليس في الجمع بين الاثنين - صلاة الجماعة وصلاة القلب - التقاء في العشق ولكن تناقض في الظروف؟ فكيف تختلي بمعشوقك وانت في حضرة الاخوة ولو تشاركتم في المعشوق؟

• نقطة الانطلاق: خبرة الجبل المقدّس - آثوس

ازداد تساؤلي وتفاقم استغرابي مما كان يلوح لي تناقضاً عندما زرت الجبل المقدّس - آثوس - حديقة السيّدة العذراء، فما كان يبدو لي شواذاً، بان قاعدة معممة لدى رهبان الجبل؛ ألعلّ الجميع جهالاً، أم لعلي على خطأ؟

اغتنمت فرصة حديثي مع أحد الرهبان لأسأله عن داعي حَيرتي فطرح أمامي فكرة أضاءت زاوية في تفكيري وتبلورت الى تصوّر لديّ أعرضه فيما يلي.

فكرة الراهب، وهي نابعة من خبرة روحيّة وعمليّة معاشة لدى الرهبان، تقوم على أنّ الرّهبان، في صلاة الجماعة، ينصرفون الى صلاة المسبحة عندما يتعبون من التركيز، خاصة في الصلوات الطويلة كالسهرانيّات. فبعد تركيز طويل للعقل على كلمات التراتيل يرتاح المصلّون إلى صلاة الربّ يسوع التي تقوم على الترداد بشكل أوتوماتيكي دون جهد، خاصة لمن كان متعوداً عليها.

• تصوّر لتكامل دور المسبحة مع التركيبة الليتورجية البيزنطيّة:

- هدف الترتيل:

من الثابت أنّ هدف الترتيل الاساسيّ هو جذب المصليّ الى كلمات التراتيل ومساعدته على التركيز عليها لأطول وقت ممكن. إلى جانب هذا الهدف تندرج أهداف للترتيل أقلّ أهميّة، ومنها خلق جوّ خشوعي أو جوّ عظمة ملوكيّة ترمز للملكوت،...

ما سنعرضه فيما يلي هو تصوّر شخصيّ مبنيّ على خبرة آباء الجبل المقدّس لطريقة تفاعل المصليّ مع التراتيل البيزنطيّة من أجل بلوغ أعلى تركيز وانسجام في الخدم الليتورجيّة.

- التحديّ الليتورجيّ:

من الثابت أنّ قدرة الانسان على التركيز على نص معيّن محدودة جداً في الوقت. وتضيق مساحة التركيز أكثر مع ازدياد انشغالات الانسان وهمومه الدّنيوية في عصر التعقيد والسّرعة هذا.

وعليه، يكمن تحديّ الليتورجية الاكبر في جذب انتباه المصليّ وتركيزه على الصلاة لأكبر وقت ممكن.

- حلّ الترتيل البيزنطيّ والصّلاة القلبيّة:

جاء حلّ الترتيل البيزنطيّ لهذه المعضلة في توزيع التراتيل على ثلاثة أنواع أساسيّة:

1. **النوع الارمسيّ**، أي السريع[1]، مثل الطروباريات: "ان الحجر لمّا ختم من اليهود"، ...
2. **النوع الستشيراري**، أي المعتدل السرعة، مثل: "انتم الذين بالمسيح اعتمدتم"،...
3. **النوع البابّاذي**، أي المطوّل، مثل الشروبيكونات: "أيّها الممثلون الشروبيم"،...

يساعد هذا التنويع في الموسيقى، بحدّ ذاته، على التركيز لفترة أطول، أو على الاقلّ، على لفت نظر المصلي عند كل تغيير. إلا ان الحل الحقيقي فعّال أكثر بكثير إذ يعتمد على تنويع آخر على مستوى العقل متواز مع التنويع الموسيقي.

---

[1] في الواقع، لا يتوقف هذا التفريق على السرعة تماماً، بل على تواتر توزيع المقاطع اللفظية Syllabes على وحدات الوقت في القطعة. ولكن ابتغاء في التبسيط ذكرنا معيار السرعة وحده.

في الواقع،

التنويع الذي نتحدّث عنه هو تنويع في مستوى التركيز الفكريّ نفسه، ويمتدّ ما بين:

1. التركيز الفكريّ الكلّـيّ على كلمات التراتيل،
2. وإراحة تامّة للتركيز في أحضان الصلاة القلبيّة المبنيّة على التكرار الأوتوماتيكيّ.

وعليه،

1. **في النمط الإرمسيّ وفي القراءات،** يكون ورود الكلمات سريعًا بحيث يستغرق التفكير بالكلمات المرتّلة تركيز المصلّي كلّه.
2. **في النمط الستشيراريّ،** تخفّ سرعة ورود الكلمات، فيخفّ الضغط على تركيز المصلّـي. وحتى لا يستغلّ الشيطان والاهتمامات الدّنيويّة فراغات التركيز الناتجة عن هذه العمليّة، يُشغل المصلّـي مسبحته – صلاته القلبيّة – فيملأ فراغات تفكيره تضرّعات لله، دون أن يُتعب تركيزه. بهذه الطريقَة، تُصبح كلمات التراتيل بمثابة مواضيع تأمّل تشغل المصلّـي على وقع لازمة "ارحمني أنا الخاطئ".
3. **في النمط البابادي،** وهو نمط قليل الاستعمال في ليتورجيّتنا، يرتاح التركيز شبه كليّا، وتستلم حراسةَ (بفتح التاء) المصلّـي صلاةُ (بضمّ التاء) الربّ يسوع.

وتعود الدّورة من جديد.

وبهذا التنويع الليتورجيّ، يصوّن المصلّـي تفكيره "طارحًا عنه كلّ اهتمام دنيويّ" إذ يختلي جماعيًّا وإخوته بمعشوقهم ربّنا يسوع المسيح.